من فرائد الشعر الغنائي

في لغات هندية اوربية غير لاتينية او جرمانية

بقلم الاب رفائيل نخله اليسوعي

قد نشرنا في « المشرق » ابان العامين الاخيرين ، مقالة على فرائد الشعر الغنائي في اللغات اللاتينية ، واخرى على مثل تلك الفرائد في اللغات الجرمانية . اما الآن فنقصد تعريف قُراء هذه المجلة بعض روائع ذلك القريض في ألسن هندية اوربية اخرى ، لا بد من ذكرها بالايضاحات اللازمة .

منها ثماني لغات تمثل الطائفة الصقلبية : الروسية ، الروتنية وهي لسان ملايين من اهالي جنوب روسية الغربي ، البولونية ، البلغارية ، البوهيمية والسلوفاكية لغتا تشاكوسلوفاكية ، الكرواطية والسلوفانية اللتان يتكلم بهما اهالي يوغوسلافية . اما اللغات الاخرى فهي البريتانية الناطق بها قسم كبير من سكان اقليم بريتانية الواقع في شمال فرنسة الغربي ، اليونانية الحديثة لغة الجرائد والمنشورات الرسمية ، اليونانية العامية لغة الشعب وكل الكتب تقريباً ، الارمنية القديمة والحديثة ، الفارسية ، الكردية ، البنغالية وهي من اهم لغات الهند .

لقد نظم الشعراء المفلقون في جميع تلك الالسن قصائد رائعة في تعظيم الله تعالى القيوم الازلي ، القادر وحده على ايجاد مليارات الخلائق العاقلة وغيرها من العدم . قال عنه الشاعر الفارسي ابو القاسم منصور فردوسي (٩٣٣ — ١٠٢١ او ١٠٢٥) ، ناظم « شاه نامه » اي كتاب الملوك ، في نحو ستين الف بيت ، وهو تاريخ ايران الاسطوري :

« باسم رب النفس والعقل ، الذي لا يستطيع الفكر ان يجتاز الى ما هو اعلى منه ، رب زُحل والفلك الدائر ، مُشعل القمر والزُهرة والشمس ! لا يجد الفكر سبيلًا يؤدي اليه ، لانه اسمى من كل اسم ومكان ! يجب ان تعترف بوجوده وتبتعد عن الكلام الباطل . قبل كل شيء تذكَّر خالق العالم ، واسس العبادة على ذلك التذكار ، فان نفسك اعجوبة ، وجسدك ايضاً اعجوبة ، فينبغي ان تقيس الكائنات مبتدئاً بذاتك ! »

الشاعر البنغالي رابندرانات تاكور (١٨٦١ — ١٩٤١) ، النائز بجائزة نوبل (Nobel) سنة ١٩١٣ ، قد وصف بايجاز وابتكار رائعين قدرة الله الساطعة في تحويل ما لا يحصى من البراعم الى زهور بديعة الاشكال والالوان :

« لا ، لست انت الذي تفتح البرعم ليصير زهرة ! هُزّ ، إضرب ، ليس في وسعك ان تجعله زهرة . ستدعكه يداك ، ستنزع انت تُويجاته وترميها في التراب ، لكنك لن ترى ظهور لونها وعبيرها .

« الذي يفتح الزهرة يفعل ذلك بمنتهى البساطة ! يُلقي عليها نظرة، فتصعد المائية الحية في عروقها ؛ نسمة منه ، فتبسط الزهرة اجنحتها وتهتز في الريح . لونها ينفجر انفجار رغبة من الفؤاد ، وعطرها يخرج من خفائه مثل سر من اسرار الحب . الذي يفتح الزهرة يفعل ذلك بمنتهى البساطة ! »

له في ديوان « تقادم الغناء » نجاوى رقيقة وصلوات حارة لخالقه ومولاه ، تنم عن هيامه بجلاله وجماله . يعبّر فيها بتشبيهين فاتنين عن احتياجه المطلق الى الله وحده، ويطلب من جوده النيّاض لوطنه الناعس الاستيقاظ من سباته الذي دام عصورًا ، ولنفسه القوة اللازمة لكي تخضع لربها بمحبة كاملة :

« اطلبُ منك نعمة الاستراحة هنيهةً في جوارك ؛ امـا الاعمال التي بين يديَّ ، فيمكنني انجازها بعدئذٍ . ان قلبي ، وهو بعيد عن وجهك ، لا يعرف راحة ولا عطلة ، وشغلي يصير كرباً غير محدود في بحر من الكروب لا سواحل له !

« اليوم اتى الصيف الى نافذتي بزفراته وهمساته ، والنحل يغني اغنيته في ساحة البستان المزدانة بالزهور . ها هي ساعة الاستراحة في جوارك ، وجهاً بازاء وجه ، والترنم بتقدمة حياتي في صمت هذا الفراغ وكليته . . .

« اني محتاج اليك ، اليك وحدك ؛ ذلك ما سوف يكرره فؤادي بلا نهاية ! كل الرغائب التي تهيجني نهارًا وليلًا كاذبة وفارغة الى غورها .

« كما ان الليل يحفظ مختفياً في ظلامه الحزين النداء الموجّه الى النور ، هكذا في الاعماق التي لا شعور لي بها ، يرن الهتاف : « اني محتاج اليك ، اليك وحدك ! »

« كما ان العاصفة تطلب السكون بمعمة غايتها ، بينما تضرب السكون بكل

سطوتها ، هكذا تردي ياجم حبك ، وصيحته هي على الدوام : « اني محتاج اليك ، اليك وحدك ! » ...

« هكذا الفرح الذي تذوقه بالغٌ اقصى درجات الكمال. هكذا قد انحدرتَ اليَّ . يا مولى كل السموات ، اين يكون حبك لولا وجودي ؟ لقد اتخذتني لتقاسمني اموالك ، وفي قلبي قُيِّب ملذاتك الدائم الخلود ، وفي حياتي تجد غير منقطع لارادتك !

« من ثم قد اكتسيتَ بالجمال ، انت ملك الملوك ، لتفتن فؤادي. ولذلك يفيض حبك ذاته في حب محبوبك ، وفي هذا الفيض تشاهَد في اتحادهما الكامل » ...

« حيث النفس عادمة الخوف ، والرأس يُنتصب مرتفعاً ، حيث المعرفة حرة ، حيث العالم لم يجزّأ بين جدران ضيقة تفصل اجزاءه ، حيث الكلمات صادرة من اعماق الصدق ، حيث الجهد العادم الكلال يمد ذراعيه الى الكمال ، حيث جريان مياه العقل الصافية لم يتيه على وجه ميت في قفر العادة المجدب الحزين ، حيث الروح تتقدم بهدايتك في اتساع متواصل للفكر والعمل ، في فردوس الحرية هذا ، قدّرْ وطني على الاستيقاظ ، يا ابي[1] .

« تلك هي صلاتي اليك ، يا رب ؛ إضرب ، إضرب هذا الشح المطاع في قلبي على جذره . امنحني القوة اللازمة لاحتمال كروبي وافراحي بسهولة. امنحني القوة اللازمة لجعل محبتي كثيرة الخدم . امنحني القوة اللازمة لعدم الحكم على الفقير ابدًا وعدم حناية ركبتي امام السلطة الوقحة . امنحني القوة اللازمة لرفع نفسي الى بُعد شاسع فوق الترهات اليومية. وامنحني القوة اللازمة لاخضاع قوتي لارادتك بمحبة »

في القصيدة « الى روحي » يحث نفسه على الصلاة ، لا لكي يُبعدها الله تعالى عن الاخطار والاحزان ، بل ليقويها على احتمالها . ثم يحرضها على الثقة البنوية المحضة تولاها وطلب جواره المُسعد في الشغل الوضيع المضني :

« لا تصلي لتكوني في مأمن من الاخطار ، بل لتواجيها بدون ارتجاف !

[1] يسمي الشاعر الله تعالى اباه .

لا تتسولي مستعطيةً تسكين غمك، بل الشجاعة اللازمة للتغلب عليه! لا تنظري الى الحلفاء في معركة الحياة، بل الى قوتك الشخصية! لا تلتمسي المعونة بخشوع، وانت في الخوف والاضطراب، بل ترجي بجلادتك الظفر بحريتك!

« صُني على الدوام من الجبانة[1]، بل اجعلني اشعر بشفقتك في كل نجاح افوز به، ولاحظ بحضن يديك في زلاتي! . . .

« ايها الاحمق الذي تحاول حمل ذاتك على كتفيك ذاتها! ايها المتسول الآتي للتسول على بابك عينه!

« حُط احمالك بين يدي القادر على حمل كل شيء، ولا تُلقِ ابدًا نظرة اسف الى الوراء!

« شهوتك تطفئ لهيب المصباح فور وصول نسمتها اليه. انها غير مقدسة ويداها مدنستان؛ فلا تقبل عطية تقدمها اليك، بل مجرد ما يهديه لك الحب المقدس[2].

« أترك سبحتك؛ كُفّ عن غنائك وتراتيلك العادمة التنوع في لحنها! من التي تدّعي اكرامه في هذه الزاوية المظلمة والمنفردة من زوايا معبدٍ كل ابوابه موصدة؟ إفتح عينيك ولاحظ أن الهك ليس امامك.

« هو حيث يحرث الحارث الارض الصلبة، وعلى حافة الطريق الذي يكد فيه كاسر الحجارة. هو معهما في الشمس وفي الوابل، وثوبه مغشًّى بالغبار. فاخلع رداء تقواك[3] وانحدر مثله انت ايضاً الى الغبار!.

« الخلاص! اين ترعم وجود الخلاص؟ الم يحمّل ربنا ذاته بفرح قيودَ الخلائق، فقد ارتبط بنا على الدوام؟

« أُخرج من تأملاتك ودع زهورك وبخورك على حدة! ملابسك تتمزق وتتلطخ، فلا تكترث لذلك. اذهب الى لقاء مولاك وابقَ مجاورًا له في الشغل المتعب وبعرق جبينك. ».

ميخائيل لرمونتوف (١٨١٤ — ١٨٤١) الروسي قد وصف ببضعة ابيات

١) هذا الكلام موجه الى الله تعالى. ٢) يعني حب الله تعالى له.
٣) يعني التقوى الكاذبة.

الفرج العاجل الذي جناه من الصلاة في احرج مواقف حياته :

« في الساعة السوداء من الحياة ، اذا ضاق فؤادي بالحزن ، فاني استظهر صلاة عجيبة .

« توجد قوة وافرة البركات في ايقاع كلماتها الحية ، وتهب منها نسمة نقية مقدسة فائقة الادراك !

« فكأن حملًا قد تدحرج عن النفس ، والشك قد ابتعد ، فيؤمن الانسان ويبكي بصوت خافت ، خافت جدًا ! »

يوسف فلاستيميل ييمسكي (Vlastimil Yimski) قد وصف لنا في قصيدته البوهيمية « صلاة للوطن » سكون ليلة اضاءها القمر وداعبها النسيم ، فرفعت روحه الى الله وفجّرت منها صلاة استغفار لعالمنا الاثيم ، وطلب انوار الايمان لازالة دُجاه الخانقة :

« قد خطب الكونُ الليلة من مدة طويلة . القمر الشاحب بعض الشحوب يرعى قطيعه ، والهدوء المقدس يظهر في كل الامكنة المحيطة بنا ، ونسمة النسيم اللطيفة تهدهد النواحي .

« الليل ملأى بالتأمل ، وهي تخفي الظلام في القلب الذي لا يدري كيف يؤدي الشكر الصحيح للخالق . اما العين فتوجه نظرها الى المحاسن الالهية ، وينبوع الصلاة ينفجر من عُمق النفس .

« يا الهنا ، اغفر لنا ذنوبنا ! بارك ايها الاب ، بقدرة عجيبة ، جمجمة النفس الفاحشة الضخامة[1] والمخدودة باللعنة .

« فلتزل دياجي العالم الخانقة ! خلص كل فؤاد من حجاب الليل ، وقرّب انوار الايمان بواسطة بذور ميمونة جدًا ! »

لامرتين السابق ذكره صوّر لنا في « الملاك » ، بابتكار مطرب ، نزول نفس بشرية على ذراعي ملاك ، من السماء دار النعيم الى الارض وادي الدموع ،

---

[1] نظن ان الشاعر يعني بهذا التعبير الغريب تشامخ عقل الكافر .

فتركها في مثوى الشقاء اعواماً عديدة ، وهي مقاسية لاشد الاوجاع ، وقد اضناها الشوق المبرّح الى وطنها السماوي :

« في سماء نصف الليل كان ملاك يطير ، وهو يغني غناء رخيماً هادئاً؛ والقمر والنجوم وجماهير السحائب كانت تصغي الى هـذا الغناء المقدس . كان يترنم بسعادة النفوس العارية عن الاوزار ، وهي تحت مظالّ جنان الفردوس . كان يترنم بعظمة الله ، وكان تسبيحه صادقاً .

« كان حاملاً بين ذراعيه روحاً صغيرة ، ذاهباً بها الى عالم الحزن والدموع، فرنة لحنه بقيت في الروح الصغيرة ، عادمة الالفاظ ، مع كونها حية . قد تعذبت هذه الروح زماناً طويلاً على الارض ، وهي ملأى باشتياق غريب ، فان انغام الارض الحزينة لم تستطع ان تنوب لها مناب انغام السماء . ! »

الشاعر السلوفاكي يولس اورساك هفيزدوسلاف (Orsag Hviezdoslav) (١٨٤٩ — ١٩٢١) قد اطال النظر الى آلاف النجوم ، فشعر شعوراً أليماً بالبون الشاسع الذي يفصله عنها ، بيد انها زفعت عينيه وقلبه الى خالقها ، اله الحب الفائق كل ادراك ، فاثارت في نفسه النبيلة احتقاراً كاملاً للارض وتوقاً مضطرماً الى السماء :

« لو رأت هذه النجوم من ينظر اليها بكل الانتباه نور اشتعالها فوق نقاب المساء المظلم ، لو رأت ما تراد فيها النفس ورآته فيها على الدوام ، لطارت بدون شك واحدة منها الى اسفل واصلةً الى حضني . لكن هذه المسافة غير المحدودة منها الى هنا ومن هنا اليها تمنعها عن الاتيان اليّ وتمنعني عن الذهاب اليها . اجل ، لا مانع سوى تلك المسافة غير المحدودة ؛ اواه ! هي التي تجعلنا ، انا والنجمة ، ضعيفين ، فاني اعيا قبل الوصول الى فوق ، وهي تنطفئ في اثناء نزولها الى تحت .

« فلماذا اترقى الى ما فوقي ، الى الفضاء المكوكب ؟ لماذا لا اترقى ، حيث ينبغي ، اعني في حدود الافق الارضي ؟ في هـذه الدار الدنيا الحب خداع ؛ الفتيات يحتقرن الشبان . . . اظن ان تلك النجوم الصغيرة اشد امانةً منهن واقل كبرياء في الاعالي . فاتركوني ارفع نظري ، اذ لا يريد احد في هذا العالم ان

يحبّني ؟ انا ايضاً احتقرت الارض ؟ انا هائم في حب السماء ! »

حنا كلُرخ (١٨٨٨ — ١٩١٧) البريتاني كان مستهاماً بالله ، وقد عاش ردحاً من الزمان مستنيرًا بضياء عينيه الاثيرتين الساهرتين عليه . ثم سولت له شهوات الشباب الجامحة الابتعاد عنها، كما ابتعد الابن الشاطر المذكور في الانجيل عن والده الحنون ، فلم يجد مثله في ذلك التنائي سوى العـار والخيبة ونغص الضمير . فندم على خيانته الفاحشة وثار فيه توق شديد الى عيني مولاه اللتين حاول سُدى الاختفاء عنها ، وقد ابدع كل الابداع في وصف ذلك الاشتياق النبيل :

« لن اشاهدك مرة اخرى ، يا عذوبة نظراته ! لن اتيه مرة اخرى في قعر محيطك ! مجبرلي على مسافة مئة فرسخ ، بعيدًا عن كوخي وعن بريتانية وطني. وها انا أعول مفعماً بالعتاب: « آه ! لماذا اعطيتك فؤادي ؟ » ولكن لا يوجد — اوّاه ! — من يصغي اليَّ... لن اشاهدك مرة اخرى ، يا عذوبة نظراته !

« مَن تحت بركتك الآن ؟ من يشغل مكاني بين عبيدك ؟ يا نظرة عينيه[1] ، النظرة المسكرة التي هي انور من الفجر وعميقة كالبحر ، انت التي كنت تزيدين طهارة كل رغبة ، وكانت قُبلك احر القُبل ، انت التي ذهبت بحياتي ؛ تحت بركتكَ من الآن ؟

« يا عينين محبوبتين ، عيني مليكي ، يا فردوس احلام سماوية لا تحصى ؟ النقاوة علامتها السلام ، والحال ان نهر سلام يسيل منك . امام جمالك الفائق الوصف كانت الكلمة ذاتها تخطر ببالي على الدوام: «ما اجمل عيني الله حتماً !» يا عيني مليكي ، يا عينين محبوبتين !

« يا شمس عينيه ، يا شمساً مباركة ، اذ كنت تسكبين عليَّ عذوبة اشعتك، كانتْ جميع الافكار المظلمة تذهب دخاناً ، وقلبي مملوء بالاغاني ! امّا اليوم — الويل لي ! — فصرته تخنق وسحائب الليل تحاصره كأنها زُمر مُميتة... وها انا ابكي بدموع سخينة على شمسي الغائبة ؟ يا شمساً مباركة، يا شمس عينيه ! »

١) يعني الشاعر عيني الله تعالى ، وقد هام به في الماضي ، ثم ابتعد عنه متمرغاً في حمأة الخطايا .

من اعجب مظاهر القدرة الالهية ان الباريَ وحده يستطيع في لمحة عين ، وبدون قسر ارادة الانسان الحرة، ان يحوّل الخاطئ الى ولي من اخص اوليائه ورسول يدعو جماهير البشر القراة الائمة الى معرفته ومحبته. ذلك ما اجاد وصفه اسكندر بوشكين (Pouchkine) (١٧٩٩ — ١٨٣٧) الروسي ، في قصيدته « النبي » :

« كنت سائرًا ببطء في بيداء مظلمة ، معذّبًا بعطش روحي ، فظهر لي في مفرق الطُرق ساروفيم ذو ستة اجنحة ، فلمس حدقتيَّ باصابع خفيفة كالمنام ، فانفتحت حدقتاي . في انفتاح حدقتَي انثىٰ نسر . لمس أذنيَّ فملأهما الضجيج والصوت ، وشعرت بارتجاف السماء وبطيران الملائكة العالي وبسير الزحافات البحرية تحت الماء وبنمو الكرمة في الوادي . ثم انحنى الى فمي ، فانتزع منه لساني الخاطئ، الناطق بالاباطيل ، الخبيث ، وجعل بيمينه الدامية في فمي المتخدر حُمة الحية الحكيمة . بعدئذٍ قطع صدري بالسيف ، فأخرج القلب المرتعش ، وجعل في الصدر المفتوح فحمة ملتهبة بالنار .

« كنت منبطحًا كالجثة في الصحراء ، فناداني صوت الله : قُم ، يا نبي ، «وانظر وأصغ وامتلئ بارادتي ، ثم جُب البحار والبلاد وأحرق بالكلام قلوب الناس ! »

مهما سمت قداسة الانبياء واتضحت علامات رسالتهم الالهية ، فاكثر الناس يُصمّون آذانهم عن توبيخهم وارشادهم ، بل يحاولون بكل انواع الخزي والوعد والوعيد ان يخنقوا صوتهم المزعج لملذاتهم السافلة ؟ فاذا حبطت مكايدهم ، تخلصوا منهم بقتلهم . ذلك ما اجاد لرمونتوف التعبير عنه :

« منذ منحني القاضي الازلي علم النبي الكلّي ، اقرأ في عيون الناس صفحات خيانة ورذيلة . اخذتُ اعلن تعاليم الحب والحق الطاهرة ، غير ان اخواني قد رشقوني بحجارة في غضب شديد . فنثرت الرماد على رأسي وهربت من المدينة فقيرًا ، وها انا عائش في الصحراء كالعصافير بعطاء الطعام الالهي . بينما احفظ عهد الرب الازلي ، تطيعني هناك الخليقة الارضية ، والكواكب تصغي اليَّ متلاعبةً بالاشعة في سرور .

« لكني حين اشتق لي بسرعة طريقاً يجتاز المدينة المضجّة ، يقول هناك الشيوخ للاطفال بيسمة ازدراء: « انظروا ! ها هي عبرة لكم. كان متكبراً فلم يألفنا . اراد ، وهو احمق ، اقناعنا بأن الله ينطق بلسانه. انظروا اليه ، ايها الاطفال ؛ ما اشد شراسته ونحوله وشحوبه، وما اعظم احتقار كل الناس له ! »

خباثة الشرّير ، ولو دهورته الى اسفل دركات الفجور ، لا تحول دون اهتزاز فؤاده بالاعجاب والافتتان عند مشهد الطهارة الكاملة. وقد عبّر اسكندر بوشكين ، في قصيدته « الملاك » ، عن تلك الحقيقة الاكيدة ، تعبيراً مزداناً بالايجاز والاعجاز :

« عند ابواب جنة عدن كان ملاك لطيف ساطعاً ، وهو مخفوض الرأس ، لكن الشيطان المظلم والمتمرد كان يطير على مهواة جهنم .

« روح الانكار ، روح الارتياب نظرت الى الروح الطاهرة ، فشعرت اول مرة على وجه مبهم ، بحرارة تأثر غير اختيارية.

« فقالت للاخرى : « عفواً ؛ قد رأيتك ، فلم تسطعي لي سُدى ؛ ما كنت لابغض كل شيء في العالم ، ولا لأحتقر كل شيء في العالم ! »

الفضيلة السامية لا يمكن ان تكون بنت يومها في اولاد آدم ، لكنها وليدة اعوام عديدة من التجارب المغلوبة والآلام المقاساة ، على الاخص في دور الشباب الذي تثور فيه بتواتر عواصف الشهوات الجامحة . الشاعر البولوني سيجسمون كراشينسكي (Krachinski) (١٨١٢ — ١٨٥٩) قد اوضح لنا ذلك الناموس المنيف ، وقد كساه بحلة زاهية من الخيالات المبتكرة ، في نصائحه الموجهة « الى امرأة » :

« ولو تفتتِ القلب ببلور عينيك المتلألئتين ، او دسته بقساوة فكر باطل ، فلن تُخرجي المثل الاعلى الى حيّز الحياة ، ولن يوجد فيك جمال النساء ! الاحتشام غير المقرون بالعلم ، والوجه الوردي سيان بقلة فائدتها في ايامنا . ليس المطلوب ان تكوني فتاة ، بل يجب ان تصيري فتاة باجتيازك على مهل هذا العالم المفعم بالآلام. فمتى سطع في الختام ، من كثرة الماماتك واوجاعك ودموعك ، شعاع

الالوهية المقدس ، وثمر محياك بنور يدوم الى الابد ، متى انضفرت آلام الحياة بشكل اكليل من القوة على جبينك الشاحب شحوب المرمر الابيض ، حينئذ تصعق الجمال ، حينئذ تحقق المثل الاعلى ! »

ان الله تعالى هو الحب اللامتناهي الذي ابى ان يبقى محصورًا في الاقانيم الثلاثة ذات الطبيعة الواحدة، بل اندفق ولن يزال متدفقًا الى الابد على مدارات الخلائق الناطقة التي اخرجتها قدرته من هاوية العدم، لكي يشركها في سعادته الفائقة كل ادراك فلا بدع بان تكون الفضيلة — وهي شعاع ضئيل كامد من شمس قداسة الله — حب الخليقة للرب في ذاته او في البرايا المطبوعة عليها صورته الفتانة .

قد وصف لنا دانيال ڤاروجان (١٨٨٤ — ١٩١٥) ، بالارمنية الحديثة ، في قصيدته « ايها الاب ، بارك » مآثر الحب الابوي وتضحياته الدائمة المضنية لخير ابنه العزيز :

« ايها الاب ، انا آت من الطريق المؤدي بي الى شعرك الابيض وعظامك المتحطمة من الشغل وقلبك الشائخ ومحباتك الحية ... قد اشتغلتَ وعانيت ، فحسبك... كنتَ لي ترسًا واقيًا من كل سهم وضربة ، وروحك هي التي تجول في انحاء روحي . دمي قد تكوَّن من عرقك ؛ انا نشيئة تبك الحزينة ؛ اما نفسك فهي سنديانة؛ واذ كنتَ تقتحم العاصفة معرضًا صدرك لها ، كنتُ انا اغفو في ظلك مستريحًا صامتًا .

« فينبغي الآن ان تستريح انت ايضًا وان اخلفك . فلنكدّ فلنكد . . . اريد ان اكافح ، ان اشتغل ، ان اجابه الحياة . ابتِ ، بارك ؛ ضع يدك الراجفة على رأسي ، ولتنزل متقطرة من اصابعك صلاتك الصادرة من منبع نفسك الساطع . ها هي الساعة الاخيرة ، فبارك ، ابتِ . »

الشعراء اكثر تعظيمًا لحب الامهات منهم لحب الآباء، لان الاول في الغالب ارقّ واشد تأثيرًا في قلوب الاولاد ، لمشاهدتهم في كل ساعة ، من اول اعوام الطفولة ، الطف مظاهر عناية والداتهم . الشاعر الايراني المعاصر ، ايرج جلال

المالك ، يحث الابن على القيام بامه، بايضاحه له ما تقاسيه كل يوم من الاتعاب والهموم والاحزان في خدمته ، فنعدّ قصيدته « الأم التاعسة » من اجمل القصائد على هذا الموضوع :

« ايها الابن ، إعرف قدر الأم ، فانها تقاسي الألم على الدوام لاجل ابنها الام التاعسة .

« احبّ اكثر من ابيك ، فانها تحبك اكثر من ابيك ، الام التاعسة .

« احبها اكثر من الحياة ، فانها تحبك اكثر من الحياة ، الام التاعسة .

« تصونك تسعة اشهر وتسعة ايام ، فاتخذها بصفة حياتك ، الام التاعسة .

« لا تنقلبُ من احد جنبيها الى الآخر[1] خوفاً من الخطر ، الام التاعسة .

« حين تلدك ، تجعل موتها نُصب عينيها ، الام التاعسة .

« تغسل قديم ثيابك وترتب جديدها كأدنى عاملة ، الام التاعسة .

« في الصيف والشتاء تجفف جسك[2] وتبله ساعةً فساعة ، الام التاعسة.

« اذا خرجتْ عطسة من انفك ، طار عقلها من رأسها ، الام التاعسة .

« اذا سعلتَ سعلة سينة ، حزنت اشد الحزن الام التاعسة .

« لكي تنام انت في الليل نوماً هنياً ، لا تنام هي الى الفجر، الام التاعسة.

« مدة عامين ، من بكائك ليلاً ونهارًا ، تحرم الرقاد والطعام الام التاعسة.

« اذ نجمتْ اسنانك فاصبحت مريضاً ، ذاقت وجعاً آخر الام التاعسة.

« ثم حين امسكتَ ساقها لئلا تقع، قاست غموماً لا تحصى الام التاعسة.

« لكي تحصل على حياة قصيرة ، تقصر حياتها الام التاعسة .

« تسرع نحوك الى الباب فارغة الصبر من تأثرها[3] ، الام التاعسة .

« من حين ذهابك الى الكتّاب الى رجوعك تظل عينها ناظرة الى الباب ، الام التاعسة .

« لا يذوق احد من العناء في العالم اكثر من الام ، الام التاعسة .

« كل ما تحصل عليه من الحياة هو ان لها ابناً ، الام التاعسة !»

---

١) وهي حبلى وراقدة على فراشها . ٢) تزيل عرقه .

٣) لانها تخشى خروج ابنها الصغير وحده من البيت .

الشاعر الكرواتي يوفان هرانيلوفيتش (Yovan Hranilovitch) المولود سنة ١٨٥٥ ، يبوح لنا في قصيدته « الأم » ، بانه مـا زال يستمد الحرارة الخيرية والقداسة من قلب والدته، وقد طال نواه عنها ، فاسبغت عليه البسالة والتعزية في احرج مآزق حياته المضطربة :

« شعرك فضي ومحياك قد ذبل ؛ يداك تعبتان وجبينك قد انحنى . كما ان الكنيسة الصغيرة الواقعة في وسط مقبرة ، اذ يسقط عليها تاج يسير ، وقد دفنت حولها آلام مرة وآمال ساطعة، ينشر فيها القنديل المعلق الضياء والحرارة، هكذا ، يا امي ، قلبك مضطرم حباً لابنك. في عواصف حياتي تحملني افكاري من البعد ومن القربة الى كنيسة روح امي . وبعدما تدفأ وتتقدس على قلبك هذا اللطيف ، تعود مع البركة حاملة السعادة الى بيتي . ولذلك التمس من الله ان يبقي على شعرك الموخوط، حتى يظل القنديل المعلق في الكنيسة الصغيرة غير منطفئ زماناً طويلا ! »

نقولا نكراسوف (١٨٢١ — ١٨٧٧) الروسي ، في « دموع الام » ، يؤكد لنا انه لم يشاهد دموعاً ارق واطول انهياراً من دموع الامهات على اولادهن القتلى في ساحات المعارك :

« عند ملاحظتي فظائع الحرب ، امام كل ضحية جديدة للمعارك ، لا ارثي للصديق ولا للزوجة ، حتى للبطل ذاته . . . اواه ! سوف تتعزى الزوجة وينسى الخليل خير خليل . ولكن في مكان ما نفساً واحدة سوف تتذكر حتى القبر . بين اعمالنا المرصومة بالرياء وكل انواع السفالة والدناءة ، قد سارقت النظر الى الدموع المقدسة الصادقة الوحيدة. هي دموع الامهات الشقيات اللواتي لا يستطعن نسيان اولادهن الهالكين في الحقل الملوث بالدماء ، كما ان الصفصاف المستحي عاجز عن رفع غصونه المنحنية . »

حب الزوجين المتبادل هو موجد الحياة بقدرة الله ، فهو اصل حب الوالدين لاولادهم . لقد اجاد وصف تلك المحبة الشريفة الشاعر السلوفاني فرنسيس برايشرن (Préchérenn) (١٨٠٠ — ١٨٤٨) . صور لنا وداع رجل وجيه

لزوجته الصبية بوكوميلة ، قبل ذهابه الى الحرب ، ثم قال ان فكرة الانتحار قد ثارت في نفسه بعد انكساره المُذلّ ، فانتصر عليها باتباع شوقه المضطرم الى رؤية حليلته :

« ما اصعب وما امرّ ساعة الوداع ! قد لصقت بخديها دموع سخينة ، وتعانقا كأنهما جسد واحد ، ولم ترض شفة احدهما الانفصال عن الشفة الاخرى . والاب[1] يمسح دموعه التي لا يستطيع اخفاءها ، تارةً من العين اليمنى وطوراً من اليسرى ، وهو يرى شدة حزنها واستحالة التسلي لها .

« بعد الانكسار[2] كان واقفاً وحده على ساحل بحيرة « بوهين » ، متكئاً على سيفه الملطخ بالدم ، وهو يقيس بمقلتيه لجة الامواج السحيقة ، وافكار مخيفة تجول في رأسه . فهمّ بان ينزع حياته في اتيانه الاعمى[3] لكن شيئاً قد امسك يده المفرطة الجسارة ، وهو صورتك الحسنة ، يا بوكوميلة ، التي قد ذهبت به من الحرب . فانه يشتهي ان يرى مرة اخرى الهيئة المحبوبة ويحيي مكان السعادة السالفة ، ويتحقق أصبرت زوجته على سطوة الايام ، الا يزال قلبها يخفق لاجله بامانة ، ام تُرى هي راقدة تحت كتلة الارض الباردة ، او خطف المنتصر عروسه . يجب ان يعرف اهي حية ام ميتة ، ولا يستطيع قبل ذلك الانفصال عن العالم . »

الموت الماثل يفصل الاجسام الفانية ، لا الارواح الخالدة ؛ فلا بدع بكونه يزيد احياناً محبتنا للاقارب والاصدقاء الذين فُجعنا بفقدانهم . جورج زالاكوستاس (١٨٠٥ — ١٨٥٨) ، في قصيدته الشهيرة « الى القبر » ، المنظومة باليونانية العامية ، يناجيه ارق المناجاة ويشكو اليه لوعته على وفاة « ملاكه » ، وهو على الارجح زوجته او بنته :

« يا فرح اوائل حياتي ، ايها القبر المحبوب ، انت لا تتألم وانا اتألم ! لماذا اراك معلقاً حزيناً في اعلى السماء ؟ انت الذي كنت تذهب الارض وتسحر المرج ، لماذا ترشقني بضياء مُر ، كأنك تحرس ميتاً راقداً في القبر ؟

١) تدل القرائن على ان هذا الاب والد الصبية .

٢) انكسار زوج بوكوميلة في القتال . ٣) لان الرجل كان وثنياً .

« ايها القمر ، هل يسكن الملائكة في مملكتك ، وهل يساكنهم ملاكي ايضاً ؟ وهل يبعث اليَّ من هناك بنورك قبلةً مرة ؟ آه ! خذ هذا التنهد وقل له ان روحي لا تخشى داهية جديدة ، فان شوقي وفرحي راقدان في ارضه ! اطلب منك ، ايها القمر ، ان تقول له ذلك ؛ وإن سألك متى تزول كروبي ، فقل له انها تزول حين ينير شعاع كدِر من اشعتك لوح قبري ! »

حب الوطن ، ان لم يُحصر في التشدق الباطل والعواطف المذبة ، بل تجاوزها الى العمل والتضحية الدائمين لاسعاد ملايين من اهل بلادنا ، هو اسمى جدا وابعد عن الاثرة من حبنا لعدد قليل من الاقارب والخلّان ؛ وقد تغنى به في الخافقين مئات من فحول الشعراء . ديونيسيوس سولوموس (Solomos) (١٧٩٨—١٨٥٧) قد عظّم في « نشيد للحرية » ، منظوم باليونانية العامية ، وطنية ابناء قومه الرازحين نحو اربعة عصور تحت نير الاتراك الفادح ، ووصف لنا اهوال جهادهم الطويل الباسل للتخلص منه :

« اعرفكِ من الحد الهائل للسيف ؛ اعرفك من الوجه الذي يقيس الارض بقوة. ايتها الحرية ، المستخرجة من عظام اليونانيين المقدسة ، والباسلة كما كنتِ في التقدم ، السلام — آه ! — السلام عليك !

« كنت ثاوية في باطننا مكدرة خجلة ، وانتظرت فما يقول لك : « تعالي مرة اخرى . » ذلك اليوم قد تأخر في مجيئه ، وكل الاشياء كانت صامتة ، لان الوعيد يُرعبها والعبودية تضغطها . كنت تاعسة ! بقيتْ لكِ تعزية واحدة ، وهي ان تروي العظائم الماضية وتبكي في الرواة . انتظري ثم انتظري صوتاً هاتفاً بالحرية ؛ كانت يد تقرع اليد الاخرى من اليأس .

« وكنت تقولين: «متى — اواه ! — متى أُخرج رأسي من لُجة الكروب؟» فتجيبك من فوق الدموعُ والكبول والصيحات ! عندئذ كنت ترفعين نظرك المكدر بالعبرات ، ويقطر على ثوبك دم ، دم غزير يوناني ! اعلم انك كنت تخرجين خفيةً ، بالملابس الملطخة بالدم ، لكي تطلبي في الخارج ايدياً اخرى قديرة . سلكتِ الطريق وحدك ورجعت وحدك ، فليست الابواب سهلة الفتح اذا قرعتها الحاجة. احد الاجانب يبكي على صدرك ولكن بلا جواب، والآخر

وعدك بالنجدة وخدعك خداعاً فظيعاً ! وكأن غيرهم قساة — اواه ! — يقولون لك في مصابك الذي شمتوا به كل الشماتة : « اذهبي وعودي الى اولادك ؛ اذهبي ! »

« فتذهب رجالك الى الوراء وتسير بكل السرعة على الحجر والعشب اللذين يتذكران مجدك . وهامتك الشديدة التعاسة تنحني بكل التواضع مثل رأس فقير يقرع باباً ، وحياته عبء عليه . اجل ، لكن كلاً من اولادك يحارب الآن محاسة تطلب بلا انقطاع الانتصار او الموت ! ايتها الحرية المستخرجة من عظام اليونانيين المقدسة ، والباسلة كما كنت في القدم ، السلام — آه ! — السلام عليك ! »

اندراوس كلفوس (Calvos) (١٧٩٢ — ١٨٦٧) ، في قصيدته « الى الفوج المقدس[1] » ، المنظومة باليونانية الحديثة ، يدع الامطار الهاطلة والرياح الهوجاء عن جوف التربة التي يرقد تحتها آلاف مواطنيه الابطال الذين جادوا بدمائهم لنيل استقلال بلادهم التاعسة :

« لا يسق السحاب قط ، والريح القاسية لا تنثر الارض السعيدة التي تغطيكم ! ولترطبها على الدوام بدموعها الفضية الفتاة ذات النقاب الوردي ، ولتنبت هناك الزهور الابدية ! يا اولاد بلاد اليونان الخاص ، ايتها النفوس التي تجندلت بشجاعة في القتال ، يا فوج صفوة الابطال ، يا فخراً جديداً ! قد خطف منكم القدر غار الانتصار ، وضفر لكم من الآس وسرو الحداد اكليلاً آخر ! ولكن حين يدنو الزمان من الارض التي تحتويكم ، سوف يحيد عن طريقه ، مبجلاً هذه الارض المجيدة ! ولكن اذا مات شخص لاجل الوطن ، فالآس ورق لا تقدر قيمته ، واغصان السرو جميلة ! ايها اليونانيون الجديرون بالوطن وبالجدود ، كيف اراد قبر غير مجيد ان تفضلوه على سواه ؟

« الدهر ، الشيخ الحسود ، عدو الاعمال وجميع التذكارات ، يأتي ويجوب البحر والبر كليهما ، ويصب من إجانته مياه النسيان الجارية ويزيل كل شيء ، فتزول المدن وتزول الممالك والشعوب !

١) فرقة جنود يونانيين قد حاربوا الاتراك لنيل استقلال وطنهم .

« هناك بعد منحنا بلاد اليونان الارجوان القديم والصولجان، سوف تأتي كل ام باولادها وتقبّل ترابكم المقدس ، ساكبةً الدموع ، وتقول : « يا اولاد ، إقتدوا بالفرح المقدس ، فرح الابطال ! »

الشاعر الروتاني تاراس شفتشنكو (Chevtchenko) (١٨١٤ — ١٨٦١) قد وصف لنا قبور ربوات جنود بلاده المستميتين لنيل الحرية ، بل اعارها صوتاً خافتاً يناجي الرياح :

« في الزمن الغابر كانت المدافع تزأر في اوكرانية ؛ في الزمن الغابر قد عرف الزاپوروك[1] كيف يحكمون ؛ حكموا ونالوا بالحرب المجد والحرية ايضاً . قد مضى ذلك وبقيت في الريف تلال قبورهم . شامخةً تلك التلال التي انبطح فيها للاستراحة جثة الكوزاكي البيضاء الملفوفة بنسيج الحرير . شامخةٌ تلال قبورهم ، وهي تظهر دكناء كالجبال ، وهي تحادث الرياح بصوت خافت ، في الريف ، على الحرية . شاهدُ المجد وسيادة الجدود يحادث الريح ، والحفيد يحمل المنجل في الندى ويغني بعدهم .

« في الماضي قد طابت الحياة لبلادنا اوكرانية ؛ اما الآن فنعود الى الماضي بفكرنا ، لعل القلب ينال على الاقل شيئاً يسيراً من الهدوء . »

الاكراد ، الممتازون بشدة تعلقهم بلسانهم وبقوميتهم ، مع تشتتهم الطويل المذل في تركية وسورية والعراق وغيرها ، لا يزال زعماؤهم يبذلون اقصى الجهود لجمع شمل شعبهم في بلد واحد مستقل . فلا غرو من كون شعرائهم المقلقين دائبين على اضرام نار الوطنية في قلوب تراثهم . پيره ميرد (١٨٦٧ — ١٩٥٠) يحيّي آلاف شهداء الوطن الكردي المستقبل ، ويحث بني قومه على اقتفاء آثارهم المجيدة :

« ايها الوطن الأم ، هيّا انهض لرد التحية ! ها هم شهداؤك بملابسهم الحُمر القانئة . ما اجملها : الدم وبياض المشيب ، الشباب والشيخوخة !

[1] زاپوروك (zaporogues) اسم كوزاك اوكرانية القديمة . الكوزاك كانوا طبقة من طبقات سكان اوكرانية القديمة ، وقد امتازوا بصفة فرسان في الحروب .

« تطلّع اليهم ، يا وطني ، انهم من ابنائك المغاوير ، ضحوا بأرواحهم ، وهم يهتفون : « عش عالياً ، ايها الوطن ! » قدّموا ارواحهم قرابين رخيصة في سبيلك ، فان لم تكن حرًا طليقاً ، فالموت لنا ، يا وطني !

« لا تبكيهم ، يا وطني ، ولا تندبهم لكيلا يحزنوا لأسالك ! سيبقون فترةً على الارض ، ثم تصعد ارواحهم الى السماء ! بالله تُب عنا ، ايها الوطن الغالي العزيز ، وبلّغهم ان الله شاهد على ثباتنا على العهد ، لا ننساهم ! ترى ايكون الحظ حليفنا في فرصة اخرى ، فنعيش مثلهم سعداء في قلوب الشعب ؟ آه ! كم اتمنى ، عندما أُحشر بملابس مصطبغة بالدماء وبحماس عشق قوميّ مشتعل مثير ، ان تحرق نيران قلبي اكفاني ! أُقسم بانني لن اطفئها ما استطعت الى ذلك سبيلاً ، حتى تُحيل بنارها اعدائي الى الرماد ! »

الشاعر ذاته قد باح لنا بقصيدته « في عيد نوروز[1] » بانه قد رأى في الشمس المشرقة من وراء ذُرى الجبال ، رمزًا حيًا لانبلاج فجر استقلال قومه الشقي المستعبَد :

« اليوم رأس السنة الجديدة ، وقد حل نوروز . النبُ « اهلًا لحلوله » فانه عيد كردي قديم ! كانت زهور آمالنا مدوسة بالاقدام ، ونحن نتخبط بشقاء الله وحده عليم به ، وفي العام الماضي سقت دماء الشباب ورود ازهار الربيع فأروتها واينعتها[2] .

« لا يحتاج شهداء الوطن الى البكاء والعويل ، لانهم مخلّدون في قلوب الشعب والوطن ! ها قد طلعت الشمس من وراء قمم جبال الوطن العالية ، انها دماء الشهداء تتمكس كالشقق الاحمر ، وان هذه الحمرة القانية في افق كردستان الناهض تبشر الشعوب القريبة والبعيدة بالحياة !

« لم يحدث حتى الآن في تاريخ الاقوام ان يكون صدر الفتاة هدفاً للرصاص ، لكن نوروز قد اضرم النار في القلوب ، فاستقبل الشباب الموت بترق وهيام ! »

١) اسم عيد قومي قديم يحتفل به الاكراد في ٢١ آذار من كل سنة .
٢) اينع فعل مشتق من الفعل اللازم ينع اي اشتدت حمرته .

الوطن يحيا ويترقى بسمو اخلاق ابنائه ، وهو يضعف ويتلاشى بانحطاطها . ولا مراء في كون النساء ، ولا سيما الصبايا ، ذوات تأثير عميق في طباع قومهن ، فطهارتهن ترياق شاف لما اختل منها ، وعهارتهن سم زعاف لما سلم منها . لقد عبّر عن تلك الحقيقة الراهنة الشاعر الايراني المعاصر سعيد نفيسي تعبيرًا بليغًا في قصيدته « صبايا اليوم وامهات الغد » :

« ايتها الصبايا ذوات وجه كالقمر ، لقد حان لكنّ الاحتياط . إجعلن في قلوبكن نصيحتي ، انا الحزين والجريح الفؤاد ، وأصغين اليها . لا تكنّ غافلات إبان العمل ، وإلا ، فاذا اصابتكن لسعة ، فهنيئاً لكن !

« ايتها المتبرقعات اللبقات المحبوبات ، ابذلن الجهد لتكنّ كتومات ، فتصرن نجيّات ذوي الاسرار . لا تنخدعن بالوجه الجميل ، فانه كالزهر ، لا يطول بقاؤه ، ولا يليق بصبيحات زماننا سوى الخُلق اللطيف والطبع الشائق . انظرن الى ايامنا الملأى اضطراباً والى هذه الظلم والطغيان الظاهرين ؛ بدون سكينة وصبر ايوب لا يستطيع احد اتمام واجبه ، ليجدد تسكين ثورة هذا الزمان .

« ايتها الصبايا المتدربات على اللطف ، اجتهدن لاقتناء العلم والمروءة . تهيّجن هنيهةً في بغض عدوكن ، وهو[1] مثل شرارة محرقة للسيدات .

« على قامتكن الفتانة المضرمة القلوب لا تلبسن غير ثوب الادب . حتّام تصرخن مثل المجانين من جور الزمان بسبب مكايده ، مع ان المكن هذا لم يصبكن منذ بدء حياتكن ؟ »

الشعر الذي سداه وصف النفس او الطبيعة ، ولحمته عواطف الواصف ، هو من النوع الغنائي ، بلا ريب ؛ فلا مندوحة لنا عن ذكر بعض امثلة رائعة عليه.
الشاعر البولوني لوسيان شيامنسكي (Siemienski) (١٨٠٩ — ١٨٧٧) قد صوّر لنا بالوان مبتكرة سذاجة طفولته وطهارتها الباديتين في العابه ونظراته المتواترة الى محاسن الطبيعة ، واستشفافه من ورائها لطف خالقها الفائق ، وصلواته المؤثرة الى ذلك الاب السماوي :

« جميلة كانت اعوام الطفولة اذ كنت لا اكاد اغيب عن الوطن ! كثيرًا

١) هذا الضمير عائد الى كلمة بغض السابقة.

ما يطير اليأ فكري مرهفاً اياها بذهب الاحلام وبدموع هادئة . وتتذ كنت العب على يد امي ، وكانت ركبة ابي حصاناً صغيراً لي ، وفي قلبي عطر شديد اللذة واحزان لا تحصى!اواه ! لم يكن قد شرع في البكاء من توقه الى شيء .

« كان العالم حينئذ صغيراً جداً في نظري ، والناس طيبين مثل « ملبّسهم »؟ كانت النجوم تطرف بعيون عين دقيقة ، فتمنيت ان يكون لي جناحان لانتزع تلك الشرارات . او حين ينظر القمر من فوق الرابية ، كنت اركض اليه وانتوهم اني قد امسكته . كنت ايضاً اركب سحابة في السماء واتخذ البرق بصفة سُويط . كنت ارى كيف تضجع الشمس في سرير ذهبي صغير ، وتحت رأسها غيمة ، وكيف تسرقها البحيرة بعدئذ ، فلا تكاد تُرى اهداب ثوبها الوردية .

« كنت كل صباح ومساء افكر في ضميري : « ما الطف الله ! فقد صنع لكل يوم هذا القمر والشمس بقصد إلهائي ، والعصافير والفَراش والزُهيرات والنُشيات » . وفي غرة صباح كل يوم ومساء كل يوم كنت اتلو الصلاة مع امي قائلاً : « اللهم ، فلأكن جديراً بعطاياك ولاحبك على الدوام حباً لا يعتريه نقصان ! » هكذا كنت اصلي لاجل واهبي حياتي ، لاجل الاقارب الموتى ، لاجل المتألمين ، لاجل العالم كله ، مع ان كل ذلك يتصور لي على وجه مبهم .

« آه ! اين تلك الاعوام؟ قد ذهبت وزالت شبه موجة دفعتها السواحل الى وسط البحر ! فمتى يرانيني ، يا الله ، ملاك اعوام الشباب ؟ »

بطرس توريان (١٨٥١ ــ ١٨٧٢) ، في قصيدته الخالدة « موتي » ، المنظومة بالارمنية الحديثة ، قد بلغ اوج الابتكار بوصفه لنا وفاته وتكفين جثته وجنازه ودفنه ، مصرحاً بانه لن يزال حياً في كل تلك الحوادث ، وانه لن يموت الا يوم امحاء تذكاره من قلوب الناس :

« اذا انحدر نحوي ملاك الموت الشاحب ، بابتسامة غريبة ، وتطايرت آلامي ، بل روحي ، شبه البخار ، فاعلموا اني لا ازال حياً !

« اذا اضاءت فراشي – اوّاه ! – بأشعة باردة ، شمعةٌ ضئيلة ، شؤمى مثلي ، فاعلموا اني لا ازال حياً !

« اذا لفوني ، انا وجبيني المندى بالدموع ، بكفن بارد كالصخر ، فاعلموا اني لا ازال حياً !

« اذا رن جرس الموتى المحزن — وهو ضحكة الموت الشزراء الطائرة — فاعلموا اني لا ازال حياً !

« اذا نثر البخور والصلوات في كل مكان اولئك الرجال المترفون بالموت ، اللابسون السواد ، الكالحة وجوههم ، فاعلموا اني لا ازال حياً !

« اذا اعدّوا لدفني كومة من التراب ، وانصرف احباني في النحيب والحداد ، فاعلموا اني لا ازال حياً !

« ولكن اذا بقي قبري مجهولاً في زاوية من زوايا الارض ، وذبل تذكاري — آه ! — في ذلك الوقت اعلموا اني قد متُّ موتاً ! »

ميرزاده عشقي ، من نوابغ الشعر الايراني الحديث ، قد باح لنا بافكاره وعواطفه وبعض اسرار نفسه في وصف ليلة مُقمرة :

« كنا في اول ظهور الورد الاحمر وفي ختام الربيع . جلستُ على حجر بجانب حائط في جوار وادي دربند ، في سفح جبل ، وكان جو شمران قليل الظلمة لقرب الغروب ، ولم يزل اثر النهار باقياً على قمة جبل افين . كانت الشمس قد غابت من هنيهة وراء الجبل ، وشبح مدينة طهران لا يُرى واضحاً عن بعد . لم يكن الوقت نهاراً ولا ليلاً ، والافق بحمرة نصفه راية الثورة ، وبصفرة نصفه الآخر ستار ذهبي .

« حين اختفت الشمس وراء الجبل ، تجلى القمر من الشرق ، من وراء الاشجار . لمّا يأت الليل ، والسماء امست ساطعة ، وامطر ضياء القمراء العالم ، فجعل سطح الارض شبه عروس ذُر على وجهها المسحوق الابيض .

« مع ان الليل في الغالب سواد مُشّع ، هذه الليلة ، بخلاف غيرها ، بيضاء . انت ، يا صاح ، تسمي بدراً كل شيء جميل ، فتعال ، فهذه ليلة مقمرة ، والزمان قد اصطبغ ايضاً بصبغة الرجاء في هذه الليلة الفضية .

« العالم اشد بياضاً من الافكار الفلسفية ومن هذه الاشراق الخفية رفيقة روحي . باطن دماغي ساطع بالخواطر الجميلة ، فان الفكر ذاته نيّر في الليلة

المقمرة ، كما ان القلب مظلم حزين في الليلة الدامسة .

« جلست في مكان مرتفع ، وقد انبسط المنظر امام عيني ، وامتد نظري الى اقصى مداه ، فخطرت ببالي خواطر لا نهاية لها . اواه ! لم تعطني الايام جناحاً كجناح النسر لاطير الى السماء !

« قد انتشر نور البدر بين غصون الصفصاف ، ورسم على النهر والمرج خيالات بيضاء كفؤاد مفعم باليأس وبذرات من الامل ؟ فليت دور شبابي يتجدد ، فاؤخر قدمي من عامي الثلاثين الى العشرين !

« داخل الغابة اسود وابيض ، وكذلك السبل والارياف ؟ كل هذه البقعة ظل ونور . فمن ظلال حياتي وانوارها خطرت ببالي الحوادث الماضية ، بيضاء وسوداء ، من الافراح والاتعاب ، فان الزمان كان طوراً مراً ، وتارةً حلواً .

« حين ينشر البدر ضياءه على نُتف الغمام ، تشبه القطن المشتعل . لا تسألني هل يغرد بلبل افراحي ، فمن يقدر حسن الطبيعة قدره سوى امثالي ذوي النظر الساهر الدقيق ؟

« كما تتلون ليلاً عاكسة النور الخضراء بتأثير نور المصباح ، هكذا لوّن البدر هيئة البستان باللون ذاته ، وتلبي هذا الملآن ادناساً يتقي بين الاشجار آثار اشواقه ، فاين من يأتيني ويمنحني السكينة ؟ »

ليوبن كارافيلوف (Liouben Karavelof) البلغاري (١٨٣٧ — ١٨٧٩) يسرّ الينا بان غابته المحبوبة ، التي طالما فتنته بمحاسنها المديدة ، ما زالت تثير الهم والحزن في روحه الطروب ، لانه قد رآها مراراً في الشتاء عادمة الحياة والجمال :

« انت جميلة ، يا غابتي ؟ تفوح منك رائحة الشباب ، لكنك لا تبثين في قلوبنا سوى الهم والحزن . من شاهدك مرة يأسف على الدوام لانه لا يستطيع ان يغني في ظلالك . ومن تحتم عليه ان يغادرك ، فلا يقدر ان ينساك ، ما دام حياً ! انت جميلة ، يا غابتي ؟ تفوح منك رائحة الشباب ، لكنك لا تبثين في قلوبنا سوى الهم والحزن !

« ما فيك من الزان والسنديان والورق الملتف والزهور والمياه والحلان

السينة والفوانيا[1] والاعشاب والبرد اللذيذ ، اصرّح بان كل ذلك يقع احياناً كرصاص البندقية على الفؤاد الذي لا يزال على وشك البكاء. اذ يرى في الطبيعة شيئاً جديداً ، اذ يرى كيف يطرد الربيع الشيخوخة ، وكيف تنحّى الحياة تحت البرد والثلج ! انت جميلة ، يا غابتي ، تفوح منك رائحة الشباب ، لكنك لا تبثين في قلوبنا سوى الهم والحزن ! »

حنا بوليميس (Polémis) (١٨٦٢ — ١٩٢٥) قد وصف لنا انقاض قصر ماتت سيدته المفراح البسام ، فلم تبق فيه غير علامة واحدة للحياة ، وهي عش سنونو :

« بين خرائب القصر ، في الانقاض القديمة ، بقيت علامة حياة : عش سنونو . والسنونو تسأل: « اين السيدة الباسمة التي كانت تنشر الفرح في اعوام ماضية ? » وعقود القصر تجيب : « حول هذه الحنية كان في الزمان الغابر بستان تزهر فيه زنابق جديرة باثارة الحسد . اما الآن فقد بقي بوراً بالاشواك اليابسة ، حيث ذهبت الزنابق ذهبت السيدة ايضاً[2] ! »

« بين خرائب القصر ، في الانقاض القديمة ، بقيت علامة حياة : عش سنونو . والسنونو تطير وصوتها البطيء يطلب صدى من الاعوام الماضية . الخريف يظهر والغيوم تمر بدون انقطاع ، والسنونو تنطلق ثانيةً لسفر ، وفي ذلك الخلاء ، بين الاشواك اليابسة ، لن يبقى شيء يسأل عن السيدة . »

قد انتهت الآن جولتنا السريعة في حدائق الشعر الغنائي المختص بلغات هندية اوربية غير لاتينية او جرمانية . فعسى ان تكون قد اطربت قراء هذه المجلة العزيزة ، وزادتهم ايقاناً بان الشعر الغنائي المحض غزير المواد ، شديد التنوع ، بيد انه ثابت الجوهر في كل زمان ومكان ولسان ، لان كنهه السامي هو وصف عواطف النفس العالية امام جميع مظاهر الحقيقة والجمال والفضيلة ، وعلى الاخص امام ينبوعها الفياض ، الهنا وخالقنا ، اللامتناهي الحسن والقداسة .

---

١) اسم نبات زهره شديد الجمال .

٢) يعني الشاعر ان السيدة قد ماتت .